

مادة القرآن

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى
مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾

[الإسراء: ١٠٦]

قلت : أهلاً بك ومرحباً . اجلس فقد أوحشتنى .

قال : وأنا مشتاق للولوج والسير . أما اتفقنا أن نلج باب الإعجاز ونسير فيه بعد أن أشرفنا على تخومه ؟

قلت : بلى . وإنى لأشد منك رغبة فى الولوج وأكثر شوقاً للسير .

فما باب الإعجاز الذى تريد أن تلج منه إليه ؟

قال : مادة القرآن .

قلت : مادة القرآن ؟!

قال : نعم . فانا الآن أصدق أن القرآن معجزة ولكنى لا أفهم كيف يكون الكلام معجزة فو طاقة البشر وقدرتهم وكل الناس يقول ، وكلهم يمكنه الكلام ويأتى فى كلامه بالبليغ الساطع وبالمبين الناصع ؟

قلت : أما أن كل الناس تتكلم فنعم . . ولكن ليس كل كلام ككل كلام ، وإلا لاستوى شعر أمير الشعراء مع مبتذل الكلام فى الأسواق من أحقر الحقرء . ليس هذا كلام وذاك كلام ؟

قال : ما زلت غير مطمئن .

قلت : فلنتامل المسألة بروية . قل لى : كم يوجد من العناصر فى الارض ؟

قال : فذلك شئ كثير لا أحصيه وتنوع وتعدد لا يخفى .

قلت : فكم يبلغ الاختلاف بينها ؟

قال : يبلغ ما بين السماء والارض . فمنها الردى الذى لا قيمة له والنفيس الذى يتقاتل الناس من أجله ، ومنها الهش المتكسر والصلب ، ومنها الرقيق والصلد ، ومنها الخامل والمشع .

قلت : فمم تتكون كل هذه العناصر على تباينها واختلاف ما بينها ؟

قال : من الجزئيات .

قلت : وم تتكون الجزئيات .

قال : من ذرات والذرات من نواة وكهارب (إلكترونات) .
قلت : اختلف الكهارب فى الذهب عنها فى الرصاص ؟
قال : لا تختلف فى نفسها ولكن تختلف فى عددها وترتيبها حول النواة
فى مدارتها، وعدد المدارات فى ذراتها، والعلاقة بين الذرات فى جزيئاتها .
قلت : إذا فمادة الرصاص الأولى هى هى مادة الذهب .
قال : نعم .

قلت : ومع ذلك فإن كون مادة الرصاص كمادة الذهب لا يرفع الرصاص إلى
الذهب ولا ينزل بالذهب عن عرشه إلى رداءة الرصاص .
ابتسم قائلاً : إذا فالذى يهب القرآن إعجازه هو وضع حروفه فى كلماته فى
جملة فى سورة فيه كله .

قلت : تماماً كما يهب الذهب بريقه ونقائه وصفائه وسلبه لعقول الناس
وضع كهاربه فى مداراته فى ذراته فى جزيئاته .

قال : ومع ذلك فهناك من البلغاء والفصحاء من يأتى فى كلامه بالعبارة
النفيسة والكلمة البراقة التى تبرىق كبرىق الذهب .

قلت : نعم ! فمن البشر من يأتى فى كلامه بالعبارة البليغة والجملة المبينة
التي تبرىق كالذهب، ولكنك إذا تفصحتها بعناية ووضعتها تحت مجهرك لباتت
لك حقيقتها من حقيقة الذهب الخالص . فإن أوفت بالمعنى فاتها إيجاز اللفظ
وجمال المبني، وإن كانت موجزة قصرت فى المعنى، وإن امتعت وجدانك
استنكفها عقلك، وإن رضى عنها عقلك جفتها نفسك، وإن اجتمع فيها كل
هذا : المعنى فى إحكامه، واللفظ فى جماله، والوجدان فى متعته، والعقل فى
حكيمته، والبريق من كل جهة لكانت جملة واحدة أو اثنتين أو بضع جمل على
الأكثر فى الكلام كله أو الكتاب كله، ولن تكون بعد ذلك إلا كالنحاس يملك
من الذهب بريقه ولا يملك معناه، ويفقد يوماً بعد يوم نقاءه وصفاه .

ولن تجد كلاماً أو كتاباً يجتمع فيه من أوله إلى آخره إحكام المعنى وجمال
المبنى وموسيقا النظم والأثر في النفس وإشعاع المعاني من كل وجه في انسجام
وفي غير تضارب بين أول وآخر إلا القرآن؛ فكانه سبيكة واحدة من الذهب
الخالص نفاسة وقيمة، وجمالاً وبريقاً، وخلوداً وبقاءً، أو كأنه على اختلاف معانيه
وتباين مرامييه وسعة كلماته وتعدد أغراضه وتباعد ما بين نجومه جملة واحدة
قيلت مرة واحدة أقيمت على ميزان دقيق؛ إن غيرت فيها أو بدلت، أو قدمت أو
أخرت اختل واضطرب. فكل حرف وكل كلمة في مكانها إن بدلتها أو أسقطتها
تغير المعنى أو اهتز المبنى ولا يسكن موضعها ويطمئن إلا بعودتها إليه.

قال: ربما كان كلامك صحيحاً. ومع ذلك فمادة القرآن التي هي حروف
وكلمات هي مادة مبسطة أمام العرب جميعاً بل أمام أهل الأرض قاطبة يؤلفون
بينها كيف شاءوا ويأتون بالبليغ والمبين مما قد يحمل الجاهل المعاند على وضعها
إلى جوار القرآن ويزرع الهواجس والوساوس في نفوس أهل الإيمان.

قلت: عدت إلى

قاطعتني قائلاً: دعني أتم كلماتي. فلو كانت المعجزة من مادة لا يقدر عليها
أهل الأرض ولا يصل إليها علمهم لارتاحت النفس من الوساس وشفيت من
الهواجس.

فتأمل معي وانظر: إن المرء إذا رأى الناقة تخرج من صخرة أو العصا تنقلب
حية أو الميت يقوم من موته أيقن أن ذلك شيء فوق طاقة البشر أجمعين، ولا
يكون إلا بقدره مطلق لا يحدها قانون ولا يعطلها ناموس. فلا يمكن لبشر أن
يخرج حياة من جماد أو يعيد الحياة بعد الممات مهما كان علمه وقدرته، ولا
يمكنه أن يطاول مثل هذه المعجزة ولو من بعيد، لا ولا يدعى مجرد الاقتراب
منها. فهذه معجزة لا يملك إنسان مادتها ولا تنتاب النفس الهواجس والوساس
في حقيقتها.

وأما القرآن فإن العقل يرى العرب شهدوا له وعجزوا عنه وخضعوا له فيوقن

بإعجازه ثم لا تلبث النفس أن تنتابها الهواجس وتتنازعها الوسوس إذا تفكرت في مادة هذه المعجزة التي هي مبذولة في يد البشر جميعاً لا يقصرون عنها ولا ترتفع عنهم.

قلت: هون عليك. فلو تفكرت في الأمر وتدبرته ملياً لرأيت المعجزة ومادتها بين يدي البشر وأمام أنظارهم وطوع السننهم أثبت للإعجاز وأبين للقصور وأذهب للوسوس والهواجس من النفس.

قال متلهفاً: كيف؟ كيف؟

قلت: أولاً: إن القرآن مؤلف من مادة بين أيديهم هي الحروف والكلمات والعبارات.

قال: نعم!

قلت: فإن ذلك أثبت لإعجازه وأبين لقصورهم. ألا ترى أنه لو كانت المعجزة من غير حروفهم وكلماتهم لقالوا: هذا شيء لا نملك مادته ولا نعرف كيف الوصول إليها. فلو امتلكنها وعرفنا لجئنا بمثل ما به جئت.

ولوجدوا حينئذ من اللجاجة ما ينفرون به من الإقرار بالعجز كما قال القرآن: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤]. أما والمعجزة من حروفهم وكلماتهم ومادة اللغة التي هم أهلها وارقى الناس فيها كمالاً فإن ذلك أفحم لهم وأدل على أن علو المعجزة وقدرتها إنما جاءت ممن ألف بين حروفها وأودع الإعجاز في كلماتها وآياتها. فكانه يقول لهم: هذه حروف كحروفكم وكلمات ككلماتكم، فالفوا بينها كالقرآن إن استطعتم. فإن لم تفعلوا فاعلموا أن السر ليس في الحروف والكلمات وهي مادة لا تتغير، ولكن السر في الذي اختار لكل حرف موضعه ولكل كلمة مكانها.

فالمعجزة في القرآن وائتلاف مادته لا في المادة نفسها.

قال: كلامك وهينى بعض الراحة.

قلت : فأليك ثانياً : أرايت إلى ما ذكرت من معجزات ، فإن قلت لامرئى بها وحدثته عنها فقال لك : إني غير مصدق لما تقول ولا أومن به حتى أراه بعيني فماذا تقول له ؟

قال وهو يمرر أصابعه فى رأسه : أقوله له : تلك معجزة حدثت وانتهت وإنما انتهى خبرها إلينا .

قلت : فإن قال لك : ومن أدرانى ان هذا خبر صادق ؟ إني لا أصدق حتى أرى الناقة تخرج من الصخرة بعيني وأرى العصا تنقلب حية أمامى ؟ قال : فذلك معاند لا سبيل لإقناعه ولا أمل فى إيمانه . فكيف أريه حدثاً وقع من آلاف السنين ؟

قلت : تذكر أنك أنت كنت معانداً ولم تنزل إلا قليلاً .

ابتسم ، فقلت : أرايت كيف أن المعجزة حين تكون حدثاً تنحصر بزمان وقوعها ومكان وقوعها ومن شاهدها ، ثم يصير بعد ذلك خبراً يُروى يصدقه من يصدقه ويكذبه من يكذبه ، ولا تبلغ ممن تريد إقناعه وتطلب إيمانه بها إلا أن يعجزك هو بدلاً من أن تعجزه أنت ؟

قال : هذا طبيعى . فكيف يمكن لى أو لغيرى أن يحتفظ بحدث ويجعله يتكرر عبر آلاف السنين أمام عيني كل من يريد رؤيته ؟

قلت : فإذا نظرت إلى القرآن وتأملت ما بث الهواجس والوساوس فى نفسك لرأيتته هو سبب الاطمئنان وباعث الإيمان ، فإن مادة المعجزة فى القرآن حروف وكلمات من حروف البشر ، فهى باقية خالدة عبر الدهور والعصور . فمعجزة الحس فانية ومعجزة القرآن باقية ، ومعجزة الحس بائدة وحروف وكلمات القرآن خالدة .

وأما ثالثاً .

قال : وهل هناك ثالثاً ؟

قلت : نعم هناك ثالثاً ورابعاً وكما شئت .

فأما ثالثاً: فانظر إلى ما ذكرت من معجزات وقل لى: لو ذكرتها هذه المرة لا لمعانده كما تقول، بل لعالم فلم يعانده أو يجحد، ولكنه قال لك: فإنى أريد أن أتأمل هذه المعجزة وأخضعها للدراسة وأختبرها بعقلي.

فربما كانت حدثاً طبيعياً وألبسه الناس ثوب المعجزة، فالناس فى تلك العصور الخوالى لم تكن تملك من العلم والعقل ما تحكم به على ما تراه من أحداث وظواهر، فيحيلون كل ظاهرة معجزة ويلبسون كل حدث إعجازاً.

قال: فتلك أصعب من سابقتها. فإذا كنت لا أستطيع أن أجعل المعانده يرى المعجزة، فكيف آتى بها للعالم ليتأملها ويضعها تحت منظار علمه وعقله؟

قلت: فهات مادة القرآن التى بثت فى نفسك الهواجس والوساوس وتأمل الحكمة فى أنها من حروف وكلمات البشر، فتعرف - عندها - أنها ما كانت كذلك إلا لتظل متدفقة بالإعجاز فى كل عصر؛ يتأملها المتأمل، ويخضعها للدراسة والاستقراء العالم المؤمن ليزداد يقيناً والمعانده الشاك ليهتدى، فترى الناظرين إليها فى كل عصر وجهاً جديد من الإعجاز لم يدركه سابقه، ويقصر فهم السابق فيها عما يستنبطه منها لاحق. ولو كانت مادة القرآن - المعجزة من غير الكلمات والحروف لكانت صماء جامدة، لا جديد منها ولا سبيل للعقل إليها. وهل للعقل سبيل إلا لما يخضعه لنظره ويكون من مادة البشر. فمعجزة الحواس واحدة قاصرة ومعجزة القرآن متفجرة متجددة بتجدد العقول ورقبها.

ها! أما زالت تنتاب نفسك الوساوس وتساورها الهواجس؟

قال: فماذا عن رابعاً؟

قلت: رابعاً: حين تنقلب العصا حية أو تخرج الناقة من الصخرة أو غيرها مما ذكرت فبم يدرك الإنسان مثل هذه المعجزة؟

قال: بعينه وبصره.

قلت : أى بحواسه؟

قال : نعم .

قلت : وما الذى يدركه منها بحواسه؟

قال : يدرك أنها خرق للناموس الكونى ومعجزة لا يقدر عليها البشر .

قلت : ومع ذلك فأنت ترى أن العلم تقدم وصار يأتى كل يوم بالعجائب تبهر الأيصار والأسماع حتى لم يعد الإنسان يعجب لرؤية جديد لم يالفه أو غريب لم يعرفه . بل أصبح الإنسان ينتظر كل يوم عجيبة ويتوقع كل ليلة نادرة .

قال : ذلك صحيح . فإن البشرية بلغت من تقدم العلم ورقى العقل ما يأتى لكل جيل بما لو رآه سابقة لعدّه خرقاً لكل ناموس ، فهو عجيبة من العجائب أو غريبة من الغرائب .

قلت : لذلك فمعجزة الحواس وإن ظلت معجزة لارتفاعها عن طاقة البشر وقدرتهم إلا أن بريقها فى النفس ورنينها فى السمع والبصر يخفت كل يوم لأن الغرائب أصبحت من العادات والعجائب أصبحت من المتوقعات .

فقل لى : بم تدرك معجزة القرآن وتعرفها؟

قال : أضعه أمامى وأنظر فيه وأحاول أن أتلمس وأخلص إلى سر الإعجاز فيه .

قلت : إذا فأنت تدرك المعجزة فى القرآن بعقلك ، بل تدركه بشحذ عقلك واستثارته وتنبهه واستنفاره إلى أقصى طاقته والوصول به إلى غاية كماله .

وعقل الإنسانية يترقى عصراً بعد عصر ، فكلما مر عصر زاد درجة ، كان التاريخ سلم يرتقى العقل درجاته . وهو يزداد كل يوم نضجاً وكمالاً ، فكلما ازداد نضجاً وكمالاً ازداد قدرة على استقراء معجزة القرآن وفهمها ، واستكشاف أسرارها وإدراك سر إعجازها . فمعجزة العقل ما يزيدا رقى البشرية إلا كمالاً ولا يزيدا رقى العقل إلا إعجازاً .

وإليك ملحق رابعاً .

قال ضاحكاً: ملحق رابعاً: وهل انتهت الأعداد حتى تجعل لها ملاحق؟ قلت: فإن معجزة القرآن لما كانت تخاطب عقل الإنسان، به يدركها وبه يفهمها، فالقرآن معجزة تخاطب الانسان بما شرف به على سائر المخلوقات، فهي تخاطب الإنسان حال رقيه إلى مرتبة الإنسان الكامل أو المخلوق الكامل .
وأما ما ذكرت من معجزات تخاطب حواس الإنسان وتبهرها فإنها تخاطب ما يملكه الإنسان وما يملكه غيره ويشترك فيه مع بقية خلق الله الأدنى .

فقل لى: كيف كان للعقل أن يدرك المعجزة أو يفهمها إلا لأنها من مادة يستطيع أن ينظر فيها ويتأملها؟ وهذه المعجزة التي تتفجر ينابيع من الإعجاز فى كل عصر برقى العقل وتقدم البشرية، كيف كان يمكن أن تكون متجددة متدفقة تزداد كل يوم بريقاً وإعجازاً إذا كانت من مادة لا تصل إليها معرفة البشر؟ فيكون رقيهم فى واد والمعجزة فى واد آخر، وغايتها أن تكون - حينئذ - كتحفة على الرفوف؟

فما أخبار الهواجس والوساوس الآن؟

قال فى سعادة: قد رضيت .

قلت: فأليك خامساً!

قال: خامساً! أليس لأعدادك من نهاية؟

قلت: أرايت إلى ما ذكرت من معجزات أهي دليل وبرهان أم منهج

وشريعة؟

قال: بل هي دليل وبرهان على منهج وشريعة؟

قلت: فإذا المنهج والشريعة شئ والمعجزة الدليل شئ آخر منفصل عنهما .

قال: نعم .

قلت: وأما القرآن فإنه منهج وشريعة، وهو أيضا دليل هذا المنهج ومعجزة

هذه الشريعة . فالقرآن هو المنهج ودليله، وهو الشريعة ومعجزتها . ففيه توحيد بين الشريعة والمعجزة، وفيه صلة رابطة بين المنهج ودليله . وما كان ذلك إلا لأن مادته من حروف وكلمات . فأيهما أرقى في ميزان العقل وأجمل في ميزان النفس : انفصال المعجزة عن شريعتها أم توحيدها؟

قال مفكراً: إن الفلاسفة يقولون : إن التوحيد والربط هو إحدى الرغبات العقلية . والعلماء يقولون : إن التوحيد له جمال في النفس حتى إن علماء الفلك والطبيعة ليسعون جاهدين – من أجل الراحة النفسية والكمال العقلي – إلى توحيد الكون بإيجاد قانون واحد يفسرون به حركة الكون كله وقوة واحدة تنبثق منها القوى الأربع المشهورة في الطبيعة .

قلت : فمادة القرآن التي وحدت بين الشريعة والمعجزة والمنهج ودليله هي سبب كماله في العقل وجماله في النفس .

قال : فمادة القرآن هي معجزته وسر إعجازها في توليفها وتأليفها؟

قلت : نعم .

قال : إذأً فهيا بنا! فإني أرانا قد اجتزنا الباب وقد اشتقت للنظر فيما وراءه، والسير في أنحائه وأبهائه، ومعرفة السر في بنيانه، وفهم المخبوء في لبناته .

قلت : فهيا بنا نتأمل لبناته يا صديقي العزيز .

* * *